

الشعوب أعظم حظاً من السعادة أثناء السلم منها أثناء الحرب. إنا ندفعها إلى الموت حين نحارب، وندفعها إلى البؤس والشقاء حين نسالم، فهي ضحية لنا على كل حال.»

قال الملك: «فقد كنت أرجو أن يهين لك علمك وحكمتك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشقى فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعماء، ولكني أراك تسيرين في الطريق التي سار فيها الملوك من قبلك، وقد كنت أنتظر غير هذا؛ ولكن الظنون تكذب والآمال تخيب.»

قالت فاتنة: «صدقت يا أبت! إن الظنون تكذب وإن الآمال تخيب، وما أكثر ما كذبت ظنوني وخابت آمالي! وإنك لترى وجهي مشرقاً وثغري باسمًا وعيني تفيضان بهجة وبشرًا، ولو اطلعت على ضميري وقرأت دخيلة نفسي لرأيت حزنًا أي حزن، وشقاء، وشعورًا هو أقرب إلى اليأس والقنوط منه إلى أي شيء آخر، وإني لأحدثك بهذا كله كارهة، وما كنت أريد أن أظهره منه على شيء؛ فأنا شديدة الحرص على ألا ترى مني ولا ترى عندي إلا ما تحب، ولكنك قد باديتني بما تجد محسنًا بذلك إلي، فلا بد من أن أباديك بما أجد مسيئًا بذلك إليك، وليست هذه أول مرة أذيت فيها نفسك الكريمة، وشققت فيها عليك بما يعتادني من همٍّ ثقيل. إنك يا أبت مستئيس مني لأنني أسلك الطريق التي سلكها الملوك والأمراء من قبل، فأحيا لنفسي لا لغيري، ولا أرفق بهذه الرعية التي لم يرفق بها أحد قط، وهذا نفسه هو مصدر شقائي ويأسي، فأنبئني يا أبت ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعنى بأمرها ولا تفكر في مصالحها، وإنما ندعوها فتجيب، ونأمرها فتطيع، ونوجهها إلى حيث تشاء فتتجه إلى حيث نشاء، لا يخطر لها أن تأبى إذا بلغها الدعاء، ولا أن تعصي إذا صدر إليها الأمر، ولا أن تمتنع إذا وُجّهت إلى حيث لا تحب؟! أفنكون أرفق بها من نفسها، وأحرص على مصالحها وكرامتها مما تحرص هي على مصالحها وكرامتها؟!!

ومع ذلك فأين يكون الفرق بينها وبيننا؟! أليس الرجال منها والنساء والشباب منها والشيوخ، يشعرون كما نشعر، ويحسون كما نحس، ويجدون اللذة والألم كما نجد نحن اللذة والألم، ويحبون الخير ويكرهون الشر، كما نحب نحن الخير ونكره الشر؟! فما طاعتها لنا في غير روية ولا تفكير، بل في غير فهم لما تؤمر به وتقدير لما تدعى إليه؟! أترى أننا خلقنا من عنصر غير عنصرها، أو أنها خلقت من نار غير التي خلقنا منها؟!!

لقد كنت أفهم أن نتسلط على الناس، فلا يستطيعون لنا مقاومة ولا يحاولون علينا امتناعاً؛ فنحن من نار وهم من طين، فأما أن نتسلط على الجن الذين خُلِقوا من عنصرنا فلا نجد منهم إلا الإذعان والاستسلام، كما يتسلط ملوك الناس على الناس فلا يجدون منهم